جورج وديع يكاف

الصحافي والمفكر ميشال شيحا

فيلسوف الميثاق الوطني ومهندس النظام الحر

اذا كانت الأوطان والشعوب والأُمم تقوم وتختصر برجالات يتحولون الى رموز نشأتها وتطورها، وأبطال انتصاراتها بتوحيد الارض او جمع الشمل المتعدد في منظومة موحدة حول قومية عصبية او عصبية دينية، فتشيد لهم أقواس النصر، لتمر تحتها العصور والاجيال، او ترفع لهم الأنصاب فوق الأبراج والقباب يعطيها تقادم الايام هيبة مع تآكل صخرها او تلوين معدنها بمشحة صدئة. فان ميشال شيحا هو برجنا الثقافي والإنساني والفكري والخُلقي في بناء دولة الاستقلال، ومهندس القضية اللبنانية في صيغة تشاركية بين أقليات تحترم خصوصياتها، وتلتقي جميعها حول جوهر لبنان، موطنا للحريات.

بقلم واضح ودقيق خط ابن عائلة تجارية ومالية، الصحافي ميشال شيحا أهم صفحات تاريخ لبنان الحديث، ولعله أحد أكبر عمالقته. على هندسة أفكاره بُني وتحدد الكيان وقام النظام ونشأت الصيغة اللبنانية. ونظراً لقيمتها الفكرية والتاريخية أعادت مؤسسة ميشال شيحا نشر كامل كتاباته في مجموعات متخصصة لمختلف المواضيع الوطنية السياسية والاقتصادية، بالاضافة الى نتاجه الثقافي والادبي الرفيع، حملت عناوين: **بيت الحقول، تسابيح، محاولات، فلسطين، لبنان في شخصيته وحضوره، بالاضافة الى كتب في السياسة الداخلية وفي الاقتصاد اللبناني...** مجموعة تاريخية ودراسات فكرية رؤيوية تُمكّن الجيل الجديد من الاطلاع على عُمق التراث اللبناني في تاريخ الحضارة الانسانية، وعلى مراحل نشؤ لبنان الكيان والنظام الحر المُتطوّر والمُتفاعل مع محيطه في جمهورياتنا المتعاقبة. ويوم تلقيت من رئيس المؤسسة الرئيس شارل حلو المجموعة الثمينة مع عبارة "باقة رائعة من القصائد والآراء السياسية والاقتصادية لمجد لبنان" شكرته مرددا انها " تعيد عزف نشيد الايمان والرجاء، نشيد الامس وكل يوم، يرتفع من أعماقنا كما ليؤكد الانتصار على الموت" واهباً جذوة الحياة للأجيال الجديدة التي لم تُعطَ إدراك جوهر مُسلمات الماضي العريق والتي يقوم عليها الحاضر كما المستقبل.

بيده خط ميشال شيحا الكثير من مواد الدستور والتعديلات، وشدد على ضرورة قراءة دستور الوطن وفهم روحه لا نصه وحسب. بدقة وبُعد نظر، وضع صيغة النظام المتفردة، وهدفه الأسمى بناء نظام ليبرالي حر، لأن الحرية لا تتجزأ، فهي تتجاوز حقلي الدين والسياسة الى الاقتصاد، حيث يصبح العمل والتجارة وانتقال الأشخاص والرساميل، عملا ثقافياً في الحوار بين لبنان والعالم، دون تمييز بين شرق وغرب. واذا كان لبنان لا يزال ينعم بهذه الحرية حتى اليوم، فلأنها أصبحت ثروته الكبرى، ثروة لا تقاس في ضيق مساحته بل في اتساع عقله. وقد جعلت مسرحه الكون باسره.

ظلّ ميشال شيحا مرجعاً لكل العهود المتعاقبة. يساهم في صُنع اللحظات اللبنانية الحاسمة، له حضورٌ دائم كلّيا في لبناننا المستمر. وبعد غيابه بسنة عاد ليطل بفكره النيّرعلى الذين لم يعرفوه من قبل بقلم خليل رامز سركيس في **صوت الغائب** بلغة عربية بليغة تضاهي لغته الفرنسية الرائعة.

كان ميشال شيحا يطل كل يوم بافتتاحية في جريدة "لوجور"، تتناول مختلف الأحداث فيكون لقوله الكلمة الفصل في تطوراتها. ولكن فكره الوطني الشامل تجلّى في محاضراته في "الندوة اللبنانية" وقد جمعها مؤسس الندوة ميشال أسمر وعرَّبها ونشرها في كتاب بعنوان "لبنان في شخصيته وحضوره" احتفل بصدوره عام 1962 في قصر هنري فرعون، وقدمه وزير الخارجية آنذاك فيليب تقلا بقوله: **ليس من السهل الحديث عن ميشال شيحا الذي جمع في شخصه من المؤهلات والكفاءات المنوّعة إلى حدّ التناقض، ولكنه بقدرته العجيبة نجح في التوفيق بينها، وجعلها روافد نهر واحد لهدف واحد هو لبنان...** وأضاف: **استطاع ميشال شيحا المثالي الواقعي في آن أن يُقيمَ، بفضل ذكائه الرحب، جسوراً بين عبقرية الحُلم وعبقرية الواقع، وهو القائل ان لبنان هو بلدُ الحُلم والواقع معا.**

انه ثمرة نضال ميشال شيحا ونظرائه على اختلاف نزعاتهم، وهم نخبة عرفت كيف ترتفع الى مستوى الأحداث والرسالة، فتقي شخصية لبنان، شخصية جمعت الماضي الى الحاضر وحملت الى المستقبل عزيمة شعب قديم على بعث أمجاده واستئناف دوره الحيوي في خدمة الحضارة والتقدم.

بدأ ميشال شيحا نشاطه الفكري والوطني عندما هاجر إبّان حرب 1914، مع الكثيرين من أترابه، الى الاسكندرية فالتحق فيها بمدرسة الحقوق وأصدر في الوقت ذاته جريدة نصف شهرية باسم "ايبوشEBAUCHES" لشرح ومتابعة القضية اللبنانية. وكانت في هذه الأثناء قد تألفت ثلاث مجموعات في العالم لدعم القضية اللبنانية والدفاع عنها: مجموعة في القاهرة ضمت يوسف السودا وبشارة الخوري وداود عمون وإميل اده وألفرد نقاش وأمين الجميل وميشال شيحا وسواهم ... ومجموعة في باريس ضمت شكري غانم وشارل دباس وخيرالله خيرالله وسواهم، ومجموعة في نيويورك ضمت الأُخوة مكرزل وإيليا أبو ماضي ومخائيل نعيمه وجبران خليل جبران وسواهم... عملوا بالتنسيق فيما بينهم وبقوة أقلامهم وتأثيراتهم الفاعلة في محيطهم الثقافي والادبي والسياسي، في سبيل هدف واحد: استقلال لبنان.

في العام 1918 أنشأ مع شارل قرم وايلي تيان وهكتور خلاط مجلة "فينيقيا PHENICIE " وكان اسمها برنامج عمل لها يتناول الفكرة اللبنانية بجذورها القديمة وعهودها الحديثة، في الأدب والاقتصاد والسياسة، وأولوا اهتماما خاصا بالآثار مع الأب موتارد وموريس دونان وموريس شهاب، وانشأوا في بيروت مركزا للآثار العالمية كان أكثر أهمية من مراكز باريس ولندن ونيويورك.

انتخب ميشال شيحا نائبا عن بيروت لمرتين عام 1925 و1929 وكان له الدور الفاعل في صياغة الدستور ووضع نصوص القوانين الاقتصادية: ونشرت جريدة "المعرض الاسبوعية" في 21 ايلول 1931 **ان ميشال شيحا خبر السياسة البرلمانية طوال 4 سنوات فسئم وجوهها وأخذه الغضب على تلوّنها ولما**

ألح عليه اصدقاؤه في ترشحه لدورة 1929 قال إنه لا يستطيع أن يُغالب مجرى النهر ولا يريد ان ينقلبَ مع كلّ ريح ويسير في كل طريق. ولكن ظروفا خطيرة أوجبت عليه ان يظلّ على الكرسي... وكانت الانظار شاخصة اليه في الانتخاب المقبل لرئاسة الجمهورية، الا انه صرف طرفه حتى عن هذا المنصب الجليل".

عنه كتبت "النهار" عام 1933 تقول: ان ميشال شيحا الذي حملته بيروت الى الندوة النيابية عام 1925 ممثلا للأقليات، كان في المجلس عنوان الرصانة والمعرفة الصحيحة والخُلق العالي، يعمل على تحقيق المشاريع النافعة في جوٍ هادىء، بعيد عن دعايات الظهور، شأن الوطنيين الافذاذ الذين يفتشون عن اللباب دون القشور".

حول دوره في وضع الدستور، وكان مقرر اللجنة اللبنانية لوضع الدستور مع البرلماني القدير شبل دموس، يذكر خليل رامز سركيس في كتابه "الهواجس الأقلية" **شيئا عن مُضادةٍ شَجَر أمرُها بين شيحا وبيهم في مجلس العُمَرين، كما يقال عن البرلمان الذي يضم عُمَر بَيْهُم وعُمَر داعوق،** وذلك انه في أثناء التباحث النيابي في بعض مواد الدستور إحتدت المناقشة بين بيهم وشيحا، وكان شيحا يغرّب وبيهم يشرق، **وإذ احتدت المناقشة واتسعت شقّة الخلاف انسحب الرجلان الى غرفة مجاورة في خلوةِ مُصارحةٍ طويلة كان فيها للحكمة وسلامة الحسّ الشعبي فصلُ القول والغعل. في لحظةٍ من لحظات الوعي ويقظة الضمير والشعور بالتَبِعات أدرك النائبان أن ما يجمع أهلَ البلد الواحد أهم مما يفرقهم،** وكان مما قال بيهم لشيحا: **اذا نحن اختلفنا فمن يتفق بعدنا؟ ألا تسري العدوى إلى سواد الشعب، لا غنى لنا عن التفاهم او نُخرب البلاد. الخاسرُ هو الرّابح في بلدٍ مُتَعدّد الطّوائف مثل لبنان. ثم عاد الرجلان الى الجلسة وقد تفاهما، فأُعلِن الاتفاق على الدستور وعُيِّش الوفاق.** وعُلم فيما بعد، يضيف سركيس، أن شيحا، مع رهافته اللاتينية كان أصلب موقفا من بيهم في خلوة المصارحة تلك".

في العام 1937 تولى ميشال شيحا إصدار جريدة "لوجور" التي كان قد أنشأها شارل عمون عام 1934 بهدف شرح القضية اللبنانية الى اللبنانيين أولا، وتمكين الفرنسيين من فهم قضية لبنان، وتكون ناطقة بلسان أصدقاء الشيخ بشارة الخوري لأن جريدة "الاوريان" التي أنشأها جورج نقاش كانت أقرب الى الرئيس إميل اده.

ولكن التاريخ المُخلد على شقّ قلمه كان الأوّل من ايلول 1920، في هذا التاريخ من السنة التالية كتب افتتاحية في جريدة "لوريفاي" بعنوان **أول أيلول** احتفالا بذكرى اعلان دولة لبنان الكبير، وظلّ في كل سنة يحتفي بالذكرى بافتتاحية في جريدة "لوجور" بالعنوان ذاته: **أول أيلول.** آخرها سنة رحيله وبالعنوان ذاته قال: **في 1920 حققنا الكيان، وفي 1943 نلنا الإستقلال،** وآلمه ان نسير القهقرى فقال: **إذا كان النسيان آفة الانسان فإنه لدى الشعوب والدول يعرّض للفناء،** فلنبقَ موحدين أقلّه على شيء واحد: على حُب لبنان.

ظل ميشال شيحا، بين كبار الصحافيين الذين كان لهم دور كبير في تحقيق الاستقلال، الأكثر حضوراً بأفكاره التي تتخطى الأحداث الآنية لتَستشفّ المستقبل وأخطاره الداهمة. إنه صاحب رؤية ورؤى حول الانسان والوجود بنظرة ثاقبة الى الحاضر اللبناني ومستقبله من وحي معرفة الماضي الذي يرقى الى ستة آلاف سنة من حيث التاريخ والجغرافيا وانفتاح الشعب على العالم. كتبها بما أُوتِيَ من رهافة الإستشفاف وصدق التفكير وصفاء الإيمان، فجاءت حصيلة معايشة عميقة للبنان في أحق خصائصه معايشة كنَّزتها خبرة الحياة والكتاب، وصارت رؤى لهذا الوطن ومقومات، يوم كان في حَيرةٍ من وضعه، فبثها، كتابة وقولاً، لتُقرأ وتفعل فعلها بالامس واليوم وغداً وبعد غد، وتعمّ كلَّ من يُعنى بمصير لبنان.

تمحورت كتابات ميشال شيحا حول مواضيع: استقلالية الكيان اللبناني، ودور لبنان في محيطه العربي، ومواجهته خطر الجوار الاسرائيلي، وأهمية قِيَمه في حضوره العالمي.

فلسفة صيغته اللبنانية قامت على تجمع الاقليات وتشركتها في نموذج غير موجود في أي بلد آخر. وقد اعطاها مضمونا فلسفيا وقانونيا سُمّيت فيما بعد بالميثاق الوطني.

في كتابي "حقائق لبنانية" الصادر عام 1960 قلت حول "المعجزة اللبنانية" كلاماً لميشال شيحا بان **حب المغامرة عند اللبنانيين آخذ بالازدياد بقدر ما هي التطورات الحديثة في العالم والمضاربات الدولية كبيرة، فتتيح له مجالات واسعة للعمل. لأن اللبناني يصدر افكارا وخدمات، وبما ان تاسيس الصناعات الكبرى ليس بالامر الممكن لبلد كلبنان، ونظرا للتزاحم الجنوني بين صناعات الدول الكبرى، فان لبنان باستطاعته ان يفيد أكثر بتصريف منتوجات تلك الصناعات الهائلة، في مختلف انحاء العالم بواسطة ما له من شبكة علاقات واسعة، يديرها في جميع بلدان المسكونة.**

ويضيف: **حياة لبنان وازدهاره في المستقبل هما في حريته الواسعة، ثمة أشياء عديدة تستطيع الدول الصغيرة ان تستبيحها لنفسها فيما تُحرّم على الدول الكبيرة.** وأضاف: **نحن نعيش في لبنان كما في اوروبا ولكن مدنيتنا لم تُقيدنا بالتشريعات التي تقيدت بها سائر الشعوب الراقية، فنجونا من أمراض التشريع الحقوقي والمالي، واستطعنا ان نستفيد من تقدم الغرب في العلم والميكانيك دون أن نُلزم أنفسنا بفلسفة الغرب السياسية او بسياسته الاقتصادية او بنظرته الى الطبيعة الانسانية.**

بالنسبة الى العالم العربي رأى أن مُرتجيات لبنان هي مرتجياتٌ مَيمونة لأنها تنبع من المنابع الروحية والفكرية واللغوية والسياسية والاجتماعية وأخوّة الروح أكثر مما تنبع من النَفعية والمادة. ولكن الخطر الكبير على لبنان يأتي **من قيام دولة اسرائيل، دولة ليست كسائرالبلدان، من يتاخمها يتاخم دولة عالمية، نسيج وحدها، ومشتلاً للعنصرية في صميمها حيث المواطنية يرسم حدودها دينٌ يتَّسم بالتَّستر، ومطامعها مختلفة تغلي أبدا... فاسرائيل دولة-عاصمة لليهودية جمعاء، ولشعب ممثل في الجنسيات كلها وفي أهم الحكومات، وله يد طولى في سياسة الولايات المتحدة وفي سياسة دول كثيرة.** ورأى ان هذه الدولة الجديدة في جوارنا، **ستطالعنا بالاخطار على صفوفها، ولن نؤتي الراحة بعد اليوم.**

المعضلة الكبرى بنظر ميشال شيحا ان **اسرائيل جعلت من التوطين والاعمار الحثيث محوراً لسياسة احتلال وانبساط، فكلما زاد سكانها زاد ثقلها على الحدود. وهناك من يعتقد مستخفا انه مع الاجيال التالية ستبدأ مرحلة الانحلال. هؤلاء لن نشاطرهم رأيهم السقيم، اذ ان في استطاعة الشتيت الصهيوني ان يرفد اسرائيل بروافد جديدة. بتشجيع الهجرة**

اليها بحوافذ مالية مغرية وبناء المستوطنات وتأمين فرص عمل للوافدين، وحمايتهم بقوة السلاح... بينما لبنان، في حالته الراهنة، يشق عليه ان يرسّخ أبناءَه في أرضه، وصارت الهجرة مدعاة قلق. بينما التهجير العربي من اسرائيل بالاستيلاء على ارضهم وارزاقهم يصب غالبا في الدّشار اللبناني.

نظر ميشال شيحا الى مستقبل لبنان والمنطقة في خضم التحولات العالمية، فرأى ان لبنان يقع على مفترق تنجذب اليه مع القيم الروحية مشروعات زمنية لاوروبا والمنطقة المتوسطية، فقال: **سيرى أحفادنا تراثات الغرب مصهورة في تراث أوحد، اما بالنسبة لشرقنا الادنى فان اوروبا الغربية تمتد دون تباين من الخليج حتى راس الشمال**... وأضاف **ان أسبابا جغرافية وتاريخية رسمت لاوروبا الغربية وجهها الجديد، لكن ثمة أسبابا منطقية دفعت تركيا نحو الحلف الأطلسي، والمصمم الغربي آخذ على عاتقه المناطق المتوسطية، هذا ما يبتغيه الماضي باسره وما يبتغيه ماضي الحضارة العربية الجميل.** وأضاف بنظرة رؤيوية مستقبلية قائلا: **عندما يشفّ الغشاء الذي يُغشّي الغد، يصبح التضامن المتوسطي واقعا حاسما تبطل معه الكثرة في مناصبات اليوم كما بطلت في الغرب مناصبات الاقطاعيين في مغربان القرون الوسطى. أدعيتنا تواكب هذا الغرب الوليد الذي يَقحم التركي بابه جذلاً ... البحر المتوسط لدواع جديدة اقتصادية وروحية ترهن بمستقبله السياسات والمخططات. والعالم العربي بمطله البحري المديد ما هو الا عالم متوسطي. فالاربعون مليون نسمة (أكثر من مائتي مليون اليوم) المنتثرون في بلدان الجامعة العربية ينزلون من التاريخ مساقط رأسه بالذات، والتي هي فاتحة تضامن محتوم.** خاصة وان بلدان الجامعة العربية على صعيد القوة تكاد تكون لا شيء، اما على الصعيد الجغرافي وصعيد التاريخ فانها واقع ولا أثمن. وهي وإن لم تكن بحد نفسها تستطيع الكثير فإن قوتها تكمن في أنها تشكل معا عقدة طرقات ومفارق للعبور، لا يخولها الانطواء على عزلتها.

ولعله رأى، قبل نصف قرن، ان دور لبنان في الشرق المتوسط هو الدور الذي لعبته فرنسا والمانيا، بتراثهما الحضاري العريق ثقافيا واقتصاديا، في تحويل اوروبا الهرمة الى اتحاد اوروبي ناشط، وقوة عالمية ناهضة. فيكون دوره في هذا الشرق الذي يجمع كل الطوائف والمذاهب الدينية والروحية والاعراق العصبية بان يصدّر اليه الصيغة اللبنانية التي أرساها بالتشركة بين طوائفه، صيغة تضمن خصوصية كل طائفة في الوطن الموحد، والتوفيق بين المصالح دون التضحية بالجوهري، في تعمير الحاضر والآتي وضمان ما يتحلى به من خُلق ومن طاقات عليا.

وميزة ميشال شيحا الكبرى في انه التزم في كل كتاباته وأعماله بالقِيم السامية، ورأى ان لبنان اذا كان في حاجة الى تجار وتجارة مزدهرة، والى صناعيين وصناعة ناهضة، والى رجال أعمال وأموال، فهو بحاجة أكثر الى مواطنين. والى توطيد مكاسبه بان تتميز بالقِيم على انواعها:

قيم سياسية، فلا نتكل دائما على عامل الزمن الذي يتمكن أحيانا من تسوية الاوضاع المربكة.

قيم اقتصادية تُهددها أخطار الربحية السريعة والمضاربة غير المشروعة.

قيم جمالية، وما يدعو الى الاغتباط ان الفنون ما زالت على قيد الحياة.

وقيم خُلقية وأخلاقية، تراوح بين الفلسفة والسياسة. وثمة تقاليد جد نبيلة لا تزال قائمة، في الاخلاص للامة والتعلق بالارض واعتبار أثيل للماضي، وثمة تضامن انساني...

والقيم الروحية والدينية لا تزال قائمة، فما تخلينا قط عن كل ما هو قدّوس أزلي. فالروح السمحة هي التي أقامت لبنان البدء، والروح السمحة هي التي توطد لبنان اليوم.

وقبل قيمة الشيء قيمة الانسان. فالقيمة ليست مسألة ثروة نتناولها بالتثمين. بل معارف ومواهب وحكمة وعلم وفن وشعر وثقافة ومزايا وامكانات. لأن قيمة الانسان في ابتداع الرائعة، مع ان عمر الرائعة يتخطى عمر العبقرية التي تبتدعها. وعلينا ان نضع الانظمة والقوانين في عداد القيم، ونعتبر الضمير المهني حصيلة التنشئة والقدرة... رغم الخرق الفاضح للقانون: وبقاء المخالفات على تعددها بلا عقاب، والانظمة والشرائع ملأى بالشوائب، وبحاجة الى اصلاحات اجتماعية، وان نعتبر من القيم قوام الكرامة الانسانية، وانما عن طريق القلب والروح.

لبنان ميشال شيحا **يستطلع دائما القيم، ويستخلص منها كُنهها والحياة، فيسمو الى مستوى مصير كبير، أكان ذلك في الاخلاق ام في الثقافة ام في المعارف الانسانية او العلوم او الالمعية ام الاعمال.** وهو النموذج المنفتح لحرية يمكن تصديرها الى كل بلدان الشرق لخلق شرق جديد متحد اسوة باوروبا الجديدة المتحدة.

ويبقى ميشال شيحا في صميم حياتنا اللبنانية

نحن اليوم كلما نقرأ افتتاحية وطنية في صحيفة لبنانية، نقرأ سِفراً من مزامير ميشال شيحا اللبنانية فنردد فعل إيمان بخصوصية لبنان وتعدديته المنفتحة.

وكلما نستمع الى خطاب سياسي وطني او نجري انتخابات ديموقراطية، رئاسية او نيابية، نعمل على هدي دستور ميشال شيحا.

وكلما نرفع رؤوسنا الى فوق تمجيداً للخالق في جمال الطبيعة، او نحقق عملا ثقافيا وفنيا، ننشد قصيدة جميلة من نظم ميشال شيحا.

وكلما نقوم بعمل انساني نبيل، نرفع البخور في تقديس قِيم سامية وضع تراتبيتها ميشال شيحا.

وكلما ننشد في مدارسنا وفي احتفالاتنا "كلنا للوطن"، نرتل دعاء الايمان بعبقرية ميشال شيحا الرؤيوية للكيان اللبناني. ونقف صفا واحدا في وجه خطر يتكرر علينا دائما من عدو كيانه يقوم على النقيض من كياننا... وفي مواجهة هجمات بربرية يضيمها ان ننعم بالحرية.

تبارك قلم ميشال شيحا الحيّ المُحيي، وتباركت أقلام صحافتنا الحرة، أرزات شامخة، ناطقة ومتجددة على الدهر من ألفية الى ألفية.

الدلب كاونتري كلوب
بكفيا المحيدثة في 23 ايلول 2010

جورج سكاف